الاراضي الزراعية .

من الممكن ان نقسم اراضي العراق الزراعية الى منطقتين رئيسيتين تتألف الاولى من ارض جنوبي العراق (السهل الرسوبي) وتمتد حتى شمال بغداد ، اى انها توازي المنطقة التي عرفت في التاريخ القديم بلاد سومر وأكد او بلاد بابل وتقدر مساحة هذه المنطقة بثمانين الف كيلومتر متر مربع ومعظمها من الاراضي الرسوبية الصالحة للزراعة وفيها مساحات كبيرة تكون مراعي جيدة للمواشي . وتعتمد المنطقة بشكل رئيس على الارواء الاصطناعي . لذا ، تفاخر الملوك والحكام باهتمامهم بمشاريع الري المختلفة كقيامهم بشق الترع والجداول واقامة السدود وبناء الخزانات اما المنطقة الثانية ، فهي المنطقة الشمالية من العراق والتي تمثل بلاد أشور تقريبا واغلب اراضيها صالحة للزراعة غير انها ارض صعبة ومتموجة ويعتمد الجزء الاعظم منها على الارواء الطبيعي لكثرة امطار المنطقة الموسمية من جهة ولصعوبة اروائها اصطناعيا لارتفاع اراضيها عن مستوى المياه من جهة ثانية . ومع هذا قام عدد من الملوك الاشوريين بفتح الجداول والقنوات لارواء الحقول والبساتين المحيطة بالمدن الاشورية المهمة كمدينة نينوى ونمرود واربيل .

التربـــــة :

تمتاز تربة العراق بخصوبتها المتناهية وصلاحيتها للزراعة ولا سيما تربة السهل الرسوبي . ونجد صدى ذلك فيما كتبه بعض المؤرخين القدامى عن العراق واحواله الزراعية فقال بعضهم في تقدير انتاج الارض بانه وصل الى ٢٠٠ – ٣٠٠ ضعف بالنسبة للمحاصيل المعروفة كالقمح والشعير ، وبديهي ان في ذلك مبالغة واضحة غير انه يشير الى مدى خصوبة الارض .

Scanned by CamScanner

وتختلف طبيعة التربة
فتربة المنطقة الجنوبية مكونة ، كما اشرنا سابقا ، من ترسبات المواد الغرينية التي جلبها
النهران العظيمان دجلة والفرات رواافدهما على مر السنين ، وهي مواد خصبة تتجدد
سنويا بارتفاع منسوب مياه الانهار وفيضاناتها وما تتركه خلفها من طبقة غرينية جديدة .
وكان ذلك سببا دفع الكتاب الاغريق والرومان ان يطلقوا اسم الدرادو ، اى بلاد
الذهب والخير في الزراعة ، على المنطقة الرسوبية من العراق ، بينما سماها المؤرخون
العرب ارض السواد اشارة الى لون تربتها الداكن وكثرة زرعها وخضرتها . وعلى الرغم
من خصوبة تربة هذه المنطقة المتناهية ، الا انها كانت تحتوى على كميات كبيرة
من الاملاح تفقدها بعض خصوبتها وتحيلها الى ارض خراب ان لم تتخذ بشأنها
الاحتياطات اللازمة لتقليل نسبة الاملاح فيها . وقد اشارت النصوص المسمارية
الى هذا الذى كان ، ولا زال ، يهدد المزارعين والى شعور القوم به حتى انهم كتبوا
الادعية والصلوات الى الالهة لحفظ اراضيهم من الاملاح ، ونسبوا زيادة ملوحة
الارض الى الاله انليل الذي غضب على الانسان فوضع الاملاح في الارض

وليس من المستبعد ان يكون من اسباب انتقال مراكز الحضارة الاولى في تاريخ
العراق القديم من اقصى الجنوب الى الشمال تدريجا هو زيادة نسبة الاملاح في الارض
ومن اسباب ملوحة الارض وزيادة نسبتها عن النسبة الملائمة للزراعة استخدام وسائل
الرى الاصطناعية حسب الطرق القديمة ، حيث تمتص التربة املاح مياه الارواء
اضافة الى مايتركه الجزء المتبخر من المياه في حرارة المنطقة الشديدة من املاح وان
الاملاح التي تدفعها المياه الجوفية باستمرار الى اعلى .وليس من سبيل للتخلص من
املاح التربة الزائدة الا اذا اتبع في اروائها طرق خاصة تعمل على غسل التربة باستمرار
منطقة الى أخرى حسب الكمية التي تحتويها من الاملاح ، وكانت الارض لاتصلح
حتى لزراعة النخيل ازدادت نسبة الاملاح فيها عن ٢٪ اما ان كانت النسبة بحدود
١٪ فان ذلك يعني انها لاتصلح لزراعة القمح والشعير واذا كانت النسبة بحدود ½٪
فانها تكون صالحة لزراعة الشعير ولكن ليس القمح .

Scanned by CamScanner

اما المنطقة الشمالية ، فتربتها خصبة ايضا غير انها مكونة من تكسر القشرة الارضية في العصور الجيولوجية المختلفة وتجمع التربة نتيجة التعرية .ونسبة الاملاح فيها قليلة اذا ماقورنت بتربة المنطقة الجنوبية ، حيث تغسل الامطار الموسمية الغزيرة التربة سنويا وتخلصها عن الاملاح الزائدة .لذا كانت قيمة الارض تعتمد على موقع

الري :

الري هو الاسلوب الاصطناعي الذي يمكن بواسطته توفير المياه اللازمة للزراعة سواء كان ذلك بفتح القنوات والجداول او اقامة السدود اوكرى الانهار .كما انه يشمل الطرق والوسائل التي تتبع في در أخطار الفيضانات والاستفادة من المياه الفائضة

وتصبح مشاريع الري امرا ضروريا في المناطق والبلدان التي تقل فيها الامطار التي تسقط فيها الامطار في غير المواسم المطلوبة اوفي المناطق المعرضة لاخطار الفيضانات وفي المنطقة الجنوبية من العراق ، حيث قامت اولى الحضارات الناضجة ، هناك سببان رئيسان يجعلان مشاريع الري امرا ضروريا وحياتيا هما : قلة سقوط الامطار اوانخفاضها عن الحد الادنى المطلوب للزراعة وتعرض المنطقة لاخطار الفيضانات .أما بعيدة عن اخطار الفيضانات – لذا لم يكن لمشاريع الري بصورة عامة شأن كبير في تاريخ وحضارة بلاد آشور .

الري والمجتمع :

كان للري اثر كبير في حياة المجتمعات التي عاشت في القسم الجنوبي من العراق سواء من ناحية التنظيم السياسي او الاجتماعي اوالعلمي او الديني بحيث يمكن القول بأن مشاريع الري واهميتها قد اثرت في كل جانب عن جوانب الحياة

Scanned by CamScanner

ولأهمية المياه في حياة الانسان ، ظهرت القواعد والاحكام بتنظيم اسلوب الري والمحافظة على حقوق الافراد والجماعات من تجاوز الغير ، فخصصت قوانين حمورابي عدة مواد لتنظيم هذه الناحية ، كما اصبح العمل في مشاريع الري العامة من الاعمال الرئيسية والهامة التي شارك فيها كل الافراد حتى الملوك والحكام . وتفاخر الملوك بقيامهم بهذا الواجب المهم وارخوا السنين باحداث تتعلق بمشاريع الري الكبرى ولكن لتنظيم مشاريع الري وضبط اسلوب اقامتها اثره في تطوير علم الهندسه والحساب وقياس مساحة الاراضي كما كان سببا في دفع البعض لمراقبة اوقات الفيضان وضبط أيام السنة .

ونستطيع ان ندرك اهمية المياه في حياة الانسان العراقي القديم من تقديسه للمياه وكل ماله علاقة بها ، فقد جسد البحار الها وجسد الامطار لها وقدس الفيضان وقدس الانهار وتحدثت اساطيره عن المياه واعتبرتها الاساس حياة الانسان وغنائه وما الخليقة والصراع بين المياه العذبة والمياه المالحة وقصة الطوفان الا امثلة على ذلك ،

لقد اثبت العراقيون القدماء قابلياتهم وقدرتهم على تذليل الصعاب وتسخير الطبيعة لخدمتهم فضربوا بذلك اروع الامثلة في الجد والمثابرة في سبيل اقامة مشاريع الري الضخمة والسيطرة على مياه الفيضانات المدمرة وكانت مشاريع الري اقاموا العراقية القديمة . فالقيام بابسط مشاريع الري ، كبناء السديد البشيطة وشق الترع والقنوات والجداول كان بحاجة الى جهود كبيرة تفوق جهود الافراد والجماعات وبحاجة الى التعاون والتكاليف والتنظيم في العمل ، فكان ذلك سببا رئيسيا من اسباب نشوئه اولى الادارات المركزية التي اخذت على عاتقها تنظيم الجهود وتوجيهها والسطيره عليها لتتمكن من انجاز مثل هذه المشاريع التي اعتمدت عليها حياة الفرد والجماعة وكلما اتسعت مشاريع الري وزدات ضخامتها كلما كانت الحاجة الى السيطرة المركزية اكثر ، فاتسعت سلطة الادارات المركزية تدريجيا فنشأت اولى الدويلات وكان من نتائج التنافس بين الدويلات ، وكان احد اسباب التنافس السيطرة موارد المياه ، ان ظهرت اولى محاولات التوحيد بينها وتأسيس دـلة القطر الواحد وذلك منذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد .

Scanned by CamScanner

اضخم مشاريع عرفها العالم القديم . وقد اعطت تلك المشاريع ثمارها فانتعشت الحياة وتكاثر السكان ونشطت التجارة وتطورت العلوم المختلفة .

العوامل المؤثرة في مشاريع الري :

لم تكن مشاريع الري واحدة في جميع المناطق والعصور حيث هناك عوامل عده تؤثر في نوعية تلك المشاريع في منطقة دون غيرها ، ومن هذه العوامل طبيعة الارض، الجيولوجية ونوعية تربتها ونسبة الملوحة فيها وحرارة الشمس وما تبخره من مياه الفيضانا

وما تحمله من رواسب والموسم الذي تحدث فيه اضافة الى ذلك ، فان ارتفاع شواطيء ووديان الانهار ونسبة انحدار قيعانها قد اثر كثيرا في طبيعة مشاريع الرى .

ولقد افادت طبيعة وخواص نهر الفرات كثيرا في اتباع وسائل معينة للرى وكانت سببا رئيسيا لتركيز السكان حول وادية . فارتفاع وادى الفرات بالنسبة الى وادى دجلة دفع الى شق الجداول الكبيرة التي ربطت الفرات بدجلة وسقت بذلك مساحات كبيرة من الاراضي الواقعة بين النهرين العظيمين كما افادت تلك الجداول في تخفيف وطاءة الفيضان ، لا سيما وان فيضان الفرات يحدث عادة بعد فيضان دجلة بشهر على الاقل . واستفاد العراقيون القدماء من المنخفضات الطبيعية القريبة من نهر الفرات كمنخفضات الحبانية وهور ابو دبس وبحر الملح وبحر النجف ومنخفض عقرقوف في تصريف مياه الفيضانات وخزنها والاستفادة منها عند الحاجة . كما ان لقلة انحدار وادى الفرات وانخفاض ضفافه اثره في تسهيل مهمة ارواء الاراضي الواقعة على جانبيه سيحا .

وكانت عملية بناء السدود الحاجزة من العمليات الصعبة والشاقة نظرا لأن تربة المنطقة الجنوبية تربة رخوة لينة لا تقاوم التيارات القوية مما سبب تآكلها وانسداد مصبات الجداول والترع . اضافة الى ذلك ، فأن مياه الفيضانات تجلب معها كميات كبيرة من الطمى والغرين فتزيد من انسداد تلك الجداول والترع مما جعل أمر تقوية السداد وكرى الانهار من الامور الضرورية والموسمية وقد ابتدع العراقيون القدماء طريقة تسليح السداد بطبقات من الحطران لكي تتماسك التربة وتقوى السداد وهي نفس الطريقة

الحمران

Scanned by CamScanner

التي اتبعت في تشييد البنايات الكبيرة كالمعابد والقصـــــور والابـــراج

وكان لزيادة نسبة الاملاح في تربة المنطقة الجنوبية اثره في اتباع وابتداع وسائل خاصة لغسل التربة وتخليصها من كميات الاملاح الزائدة .

مشاريع الرى :

تشير التحريات الفنية التي اجراها المختصون في القسم الجنوبي من العراق ، وكذلك الصور الفوتوغرافية الجوية للمنطقة الى انه كانت تشق المنطقة شبكة واسعة من الانهار والجداول والقنوات الكبيرة والصغيرة لا زالت آثار بعضها ظاهرة للعيان حتى الوقت الحاضر . وكانت تقوم على جوانب تلك الانهار والجداول الوف القرى والمدن والمستوطنات . وتدل الدراسات التأريخية الى ان بعض تلك الانهار ظل مستخدما حتى العهود الاسلامية حيث استفاد منها العرب المسلمون في العصر العباسي بعد كريها وتطهيرها كنهر عيسى مثلا . وكان الزاما على العراقيين القدماء ان يعملوا دائما على تنظيف وتطهير الانهار والجداول وتقوية السداد والا انقلبت فوائدها الى اضرار بالغة في مزارعهم وحقولهم ومستوطناتهم . لذا ، تفاخر الملوك والحكام باهتمامهم الكبير بهذه الناحية . كما يمكن القول ان اهمال مشارع الري كان من الاسباب الرئيسية التي ساهمت في سقـــوط بعض الـــدول والممالك كسلالة اور الثالثـــــــــة .

ومن الانهار التي شقت في تلك العصور النهر المعروف حاليا بالدجيل ونهر النهروان، وكلاهما يتفرع عن دجلة ، بينما شقت انهار عظمى من الفرات الى دجلة كان احدها يخرج من الفرات ويتصل بدجلة فوق مدينة بغداد وقد عرف في العصر العباسي بنهر عيسى (بالاكدية باتي انليل اي قنال انليل) ومن فروعه نهر الصراة وكذلك نهر صرصر ونهر الملكا (بالاكدية نار شاري اي نهر الملك) ونهر كوشي وشط النيل وهنـاك نهر عظيم آخر ذكره الكتاب الرومان هو نهر بالوكوباس الشهير باسم بالوكات ، وهو أسم الفلوجة القديم ، وكان يتفرع من الفرات ويصرف مياه الفيضان واذا ما انخفض

Scanned by CamScanner

منسوب الماء في الفرات وجب سد فوهته لئلا يفرغ ويصعب حينئذ ارواء الاراضي الواسعة المجاورة له ، وظن ان فوهة هذا النهر كانت بالقرب من هيت او الفلوجة وانه كان يسير بمحاذاة نهر الفرات الى جهة الغرب حتى ينتهي بالبحر ، اي ان طوله كان حوالي ٩٠٠ كيلو متر ولايعرف بالضبط تاريخ هذا النهر وبظن انه يمثل اليوم بما هو معروف باسمى (كرى سعدة) (١) .

ملكية الاراضي الزراعية :

من الامور الشائكة التي تضاربت بشأنها اراء الباحثين هو نظام ملكية الاراضي في العصور السومرية القديمة وكيفية تطوره . وقد ظهرت بهذا الشأن عدة نظريات يتزعم الاولى منها ، والتي كانت تعتبر حتى وقت قريب النظرية المعول عليها ، العلماء الغربيون وفي مقدمتهم العالم دايمل بينما يتزعم الثانية العلماء السوفيت وعلى راسهم العالم دياكانوف .وقد يكون لاراء وافكار ومبادئ كل من هاتين المجموعتين من العلماء السياسية والاقتصادية اثره في تفسير واسناد النظريات التي قبلت بشأن ملكية في العراق القديم ، فالعلماء الغربيون يرون بأن جميع الاراضي الزراعية التي كانت واقعة ضمن حدود المدينة او الدويلة السومرية كانت اساسا ملكا للمعبد او المعابد الموجودة في تلك المدينة او الدويلة وان جميع سكان المدينة او الدويلة كانوا يعملون ، تبعا لذلك ، على اراضي تعود ملكيتها الى المعبد اي بعبارة اخرى ان المعبد كان المالك الوحيد للاراضي الزراعية الواقعة ضمن حدود المدينة او الدويلة وذلك في العهود التي سبقت العهد الاكدي وكانت اراضي المعبد تستغل بطرق عدة فكان قسم منها يقطع الى الافراد مقابل خدمات معينة تقدم الى المعبد بينما كان القسم الآخر يؤجر الى الافراد مقابل اجرة مقطوعة او حصة من المنتوج . وكان المعبد يحتفظ بجزء من اراضيه للاستغلال المباشر ولسد حاجات المعبد وكهنته . وكانت جميع الاراضي ملكا خاصا للمعبد ولا يسمح بالتصرف بها عن طريق البيع .

(١) حول مشاريع الرى في العراق انظر / احمد سوسة ، فيضانات بغداد في التاريخ ، بغداد ١٩٦٣ .

Scanned by CamScanner